TRUE STUDIES
مركز ترو للدراسات

في نقد العقلانية الأداتية :
كيف أعادت الصهيونية إنتاج المنازية في حرب غزة؟

إعداد: أ.عاصم وزيري
باحث في النظرية السياسية بمركز ترو للدراسات

المستخلص

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل الكيفية التي أعادت بها الصهيونية إنتاج المنطق النازي في حربها الأخيرة على قطاع غزة، من خلال توظيف مفهوم العقلانية الأداتية الذي طورته مدرسة فرانكفورت، كإطار تفسيري يكشف تحول العقل الحديث من أداة للتحرر والوعي إلى وسيلة للهيمنة والسيطرة والتشييء. وتنطلق الدراسة من فرضية رئيسة مفادها أن الصهيونية والنازية لا تمثلان بنيتين فكريتين مختلفتين تمامًا، بل تفترض أن الأيديولوجيتين تنتميان إلى بنية فكرية واحدة تستبطن القيم المادية، وتُخضع الإنسان لمنطق المنفعة والكفاءة والهيمنة، وهو ما يؤدي إلى تحويل الإنسان في النهاية من كائن ذي قيمة أخلاقية إلى موضوع أو شيء قابل للإقصاء أو الإبادة. وفي هذا السياق، تتتبع الدراسة الجذور النظرية لمفهوم العقل الأداتي في فكر مدرسة فرانكفورت، وتستعرض أهم المفاهيم المرتبطة به. ثم تنتقل إلى بيان أوجه التشابه بين النازية والصهيونية من حيث توظيف العلم، وتكريس فكرة التفوق العرقي، وعلمنة المقولات الدينية، وتمجيد القوة بوصفها معيارًا للحقيقة والوجود. وتصل في النهاية إلى تحليل الممارسات الإسرائيلية الأداتية في حرب غزة، وتستنتج أن هذه الممارسات تمثل تجليًا معاصرًا للمنطق النازي والعقل الأداتي الحديث. وتخلص الدراسة إلى أن ما جرى ويجري في غزة من دمار وإبادة لا يمكن فهمه باعتباره مجرد أفعال فردية أو انحرافات سياسية أو عسكرية عابرة، بل يجب تفسيره بوصفه تعبيرًا عن أزمة عميقة في الحداثة الغربية وتجلياتها.

Abstract

This study seeks to analyze the manner in which Zionism has reproduced Nazi logic in its recent war on the Gaza Strip through the use of the concept of instrumental rationality as developed by the Frankfurt School, as an interpretive framework that reveals the transformation of modern reason from a tool of liberation and consciousness into a means of domination, control, and reification. The study proceeds from a central hypothesis that Zionism and Nazism do not represent two entirely distinct ideological structures; rather, it argues that both ideologies belong to a single intellectual structure that internalizes material values and subjects the human being to the logic of utility, efficiency, and domination, ultimately reducing the human being from a creature endowed with moral value to an object or thing liable to exclusion or annihilation. Within this context, the study traces the theoretical foundations of the concept of instrumental reason in Frankfurt School thought and examines the major concepts associated with it. It then moves on to identify the points of similarity between Nazism and Zionism in terms of the instrumental use of science, the entrenchment of the idea of racial superiority, the secularization of religious propositions, and the glorification of power as a criterion of truth and existence. Finally, the study analyzes Israeli instrumental practices in the war on Gaza and concludes that these practices represent a contemporary manifestation of Nazi logic and modern instrumental reason. It further argues that the destruction and genocide that have occurred and continue to occur in Gaza cannot be understood merely as individual acts or as transient political or military deviations, but must instead be interpreted as an expression of a profound crisis within Western modernity and its manifestations.

المقدمة

بعد الحرب العالمية الثانية، ظن العالم أن النازية قد اختفت تمامًا، وأنها لن تعود مرة أخرى، غير أنه أخطأ في التقدير؛ إذ ظهرت في الأفق أيديولوجية جديدة بديباجات مختلفة، لكن بجوهر مشترك مع النازية. تطورت إيدولوجيتها وتشعبت حتى باتت أشد وطأةً من النازية نفسها، ألا وهي الصهيونية. تدعي الصهيونية أنها تُعبر عن الروح الدينية اليهودية، غير أنها في حقيقتها وجوهرها تنطوي على منظومة علمانية مادية، فهي نتاج الحضارة الغربية ومنظومتها الحداثية التي أفرزت عددًا من الإيديولوجيات المُتطرفة.

شهد قطاع غزة في الحرب الأخيرة التي اندلعت عام 2023 ممارسات عديدة جُسدت فيها مُنتجات الحضارة الغربية التقنية والعسكرية والإعلامية، وما أفضت إليه من قتل وتجويع وإبادة منظمة، والتي أعادت إلى الأذهان ما رسخته ألمانيا النازية في أوروبا من قتل وتدمير، وما اتصل بما عُرف بـ"الحل النهائي" لمشكلة الفائض البشري من الأعراق والأقليات والجماعات المختلفة داخل ألمانيا النازية أو في معسكرات الاعتقال الخاصة بها، ولا سيما معسكر أوشفيتز، الذي ظل طوال عقود طويلة رمزًا للوحشية الإنسانية، ومقرًا لاستعراض الآليات الحديثة في التعذيب والقمع، وصورةً لقدرة العقل البشري الحديث على تحويل الأفعال غير أخلاقية كالإبادة إلى ممارسة تقنية منظمة وممنهجة، وتجليًا لما أسمته مدرسة فرانكفورت بـ"العقلانية الأداتية" "Instrumental Reason".

وانطلاقًا من هذا الاستدعاء التاريخي لتبيان أوجه التشابه في الممارسات، تجادل هذه الورقة بأن النازية والصهيونية هما أيديولوجيتان قامتا على بنية تكوينية متشابهة، تستبطنان القيم المادية وتجعلانها أساسًا لحركتهما وممارساتهما، وهذا التشابه في البنية لم يبق مجرد تقاطع نظري، بل تجلى عمليًا في الواقع. وإذا كانت النازية قد مثلت النموذج الأوضح لتحول العقل الأداتي إلى مشروع إبادة جماعية، فإن الصهيونية بدورها تُعيد إنتاج النموذج ذاته في فلسطين، وذلك من خلال سياسات الاستيطان والتهجير والحصار والإبادة. فكلا الأيديولوجيتين وليدتا الحضارة الغربية، وكلاهما يقوم على منطق واحد، وهو المنطق المادي، حتى وإن أخفيا ذلك تحت ديباجات دينية أو إيديولوجية.

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل الكيفية التي تُعيد من خلالها الصهيونية إنتاج أنماط العنف والإبادة النازية، مع تحليل السياسات الإسرائيلية في غزة خصوصًا، وفي فلسطين عمومًا. وتستند هذه الدراسة في تحليلها إلى أطروحات مدرسة فرانكفورت، وخاصة أطروحات جيلها الأول، أو كما تُعرف ب"النظرية النقدية"، في نقدها لمفهوم العقل الأداتي وتوظيفاته. وفي ذلك، تحاول الدراسة البناء على جهود وإسهامات من بحثوا في هذه المسألة، وفي مقدمتهم الدكتور عبد الوهاب المسيري، كما تسعى إلى رسم معالم جديدة تُسهم في وضع إطار تفسيري لما يحدث في غزة من قتل وتدمير وإبادة، وكشف الغطاء الأيديولوجي عن هذه الممارسات.

أولًا: مفهوم العقلانية الأداتية ونقده عند مدرسة فرانكفورت

يُعد مفهوم العقلانية الأداتية أحد أهم المفاهيم التي أنتجها منظرو الجيل الأول من مدرسة فرانكفورت؛ إذ أسهم في تفسير بنية العقل الغربي المادي وممارساته التي انتهجها في تعامله مع الإنسان والطبيعة. فقد كان هذا المفهوم تلخيصًا لأزمة العالم الغربي الرأسمالي، الذي بدا وكأنه لا يهتم بأي قيمة أخلاقية في تفاعله مع الأشياء والحيوات، وأصبح قاصرًا في هذا التفاعل على الطريقة العملية والأداتية والإجرائية، دون وجود غاية إنسانية سامية تُذكر. ولكي نعي بنية هذا المفهوم على نحو صحيح، فإنه يجب العودة إلى السياق الفكري الذي نشأ فيه، أي إلى مدرسة فرانكفورت التي بلورت نقدًا جذريًا للعقل والحداثة في الفكر الغربي الحديث والمعاصر.

وتُعد مدرسة فرانكفورت[1]، التي تأسست في عام 1923 تحت مسمى "معهد البحث الاجتماعي"، من أبرز التيارات الفكرية والفلسفية الغربية في القرن العشرين؛ إذ قدمت مقاربات عميقة لفهم الحداثة الغربية والكشف عن تناقضاتها الداخلية، ولا سيما في علاقتها بالعقلانية والتنوير، ووعودها بالتحرر وإخفاقها في ذلك. وقد ركز منظروها، مثل ماكس هوركهايمر، وثيودور أدورنو، وهربرت ماركوز، وإريك فروم، على تحليل العلاقات الشائكة بين التقدم الإنساني وأفول العقل، وتموضعه حول الوضعية الإمبيريقية في تفسير ماهية الوجود وحقيقة الأشياء.

ولقد دأب مُنظرو فرانكفورت في مرحلة ما بين الحربين على إعادة قراءة مشروع التنوير ومفاهيمه المركزية ولا سيما مفهوم العقلانية. دفعت الحرب العالمية الأولى وما صاحبها من مآسي إنسانية جمة رواد المدرسة إلى التدبر في انحرافات العقل الغربي، وتناقضات الحداثة التي سخرت في النهاية ما ابتدعه العقل من مُنجزات تقنية وعسكرية لارتكاب المجازر وتدمير الحضارة. لقد كانت المهمة النقدية التي كلفوا أنفسهم بها محاولة لإنقاذ ما تبقى من مشروع الحداثة، واستنهاضه من عثرته دون أن تكون مارقة عنه بالكُلية. لذلك، اعتبرت فرانكفورت

أن العقل والحداثة هما مشروعان غير مكتملين، لا ينبغي رفضهما كليًا، وإنما يجب العمل على تصحيح مسارهما والسعي لتحقيق أهدافهما من جديد.[2]

أولى منظري مدرسة فرانكفورت، ولا سيما منظري جيلها الأول، أهميةً بالغة إلى إعادة النظر في الجدل التاريخي نفسه، وقاموا بتطوير شكلًا جديدًا من الجدل، مُطور من الجدل الماركسي، عُرف بـ"الجدل السلبي"، الذي وجد صداه أساسًا في الأوساط الأكاديمية والفكرية المعاصرة. ويقوم هذا المنهج على النقد المستمر للواقع وللأنظمة الرأسمالية وللمجتمع الصناعي الحديث، لكشف التناقضات البنيوية في المجتمعات الحديثة.[3] ومن هنا، كان لا بد أن يحتل مفهوم العقل مكانةً مركزية في هذا المشروع النقدي؛ إذ إن نقد الواقع الحديث وتناقضاته لم يكن ممكنًا إلا عبر مساءلة العقل ذاته، بوصفه الأداة التي صاغت الحداثة وأسهمت في توجيه مسارها.

وفي هذا السياق، برز مفهوم العقل بوصفه محورًا أساسيًا في البناء الفكري لمدرسة فرانكفورت؛ إذ إن نقد الواقع الحديث وتناقضاته لم يكن ممكنًا إلا عبر مساءلة العقل ذاته، بوصفه الأداة التي صاغت الحداثة وأسهمت في توجيه مسارها، كما أنه يُعد العنصر الأكثر فاعلية في تحليل الإشكاليات الكبرى ضمن فلسفتها، والأداة التي استُعملت في فهم الأزمات التي قامت عليها الحداثة الغربية، والكشف عن أسباب انحرافها عن مسارها، وهو ما سنتناوله في القسم اللاحق.

أ-جذور نقد العقل في التقليد الفرانكفورتي

اهتم أغلب رواد مدرسة فرانكفورت، وخاصة منظري الجيل الأول منها، بالعقل، مستندين في ذلك إلى تراث الفلسفة الألمانية الحديثة، وبوجه خاص إلى أفكار المفكران الألمانيان إمانويل كانط وفريدريك هيغل، ولكن عبر توظيفه أفكارهما بداخل المنظور الماركسي الذي أعاد توجيه فكرهما داخل الجدل المادي ونقله من مستوى الوعي المجرد إلى مستوى التاريخ والمجتمع والواقع المادي. ولقد رأى منظري مدرسة فرانكفورت أن العقل يفترض الحرية والخلاص، وأنه الأساس الذي تُبنى عليه المنظومة الفكرية لتحرر الإنسان من مختلف أشكال العبودية. فالعقل هو الذي مكَّن البشر من تقرير مصائرهم واختيار طرقهم.

وقد جعل هيغل من العقل السمة المحددة والمميزة لكينونة الإنسان، والتي تفرقه عن غيره من الموجودات القابلة للنمو والتطور، التي تنمو في سيرورة لاعقلانية، كالنبات على سبيل المثال. ومن ثم نجد أن الإنسان

هو الكائن الوحيد القادر على تحديد ذاته في مسار التكوين والتطور، ورسم مساره وإمكاناته ومعرفته بالفكر. كما أن وجوده ذاته ليس حالة ثابتة، بل صيرورة متواصلة من تحقيق إمكاناته وتنمية حياته تبعًا للفكر الناتج عن العقل، بما يجعل الحرية هنا ليست معطى جاهزًا، بل إمكانية تاريخية لا تتحقق إلا عبر الوعي بالشروط الواقعية التي تحد الإنسان وتفتح أمامه، في الوقت نفسه، أفق التحرر.[4] وأهمية العقل عند هيجل تُستمد بشكل رئيسي من فلسفته القائمة على "الجدل" أو "الديالكتيك" المثالي.[5] فالفلسفة المثالية الهيجلية القائمة على الجدل نقلت العقل إلى مرحلة النقد القائم على مفهوم السلب أو النفي، بما يجعله يساهم بشكل إيجابي في فهم الواقع ومحاولة تغييره. وقد عثر هربرت ماركيوز في فلسفة هيجل على إمكانية الربط بين العقل وما يتضمنه قدرات نقدية الفضح الواقع السياسي والاجتماعي من جهة، والنزعة الثورية من جهة أخرى.[6]

ولقد مزجت المدرسة بين تصورات هيغل عن العقل والتحرر والديالكتيك، كما أعاد ماركس صياغتها في اتجاه مادي تاريخي،[7] والمفاهيم النقدية للعقل وذاتية التفكير عند إيمانويل كانط؛ إذ شكلت هذه المرجعيات مجتمعة الأساس النظري الذي استمدت منه مدرسة فرانكفورت جانبًا مهمًا من تصورها للعقل، قبل أن تعيد صياغته داخل إطار نقدي اجتماعي. فنجد أن كانط وضع الأساس لفهم نقدي للعقل في حقبة التنوير، من خلال بحثه في حدوده وشروط اشتغاله وإمكاناته، ولم يتعامل معه بوصفه أداةً للمعرفة فحسب، بل بوصفه أيضًا أساسًا للاستقلال والحرية، وممرًا إلى الخلاص وكسر القيود العقلية المفروضة على الإنسان، سواءً كان من الدين أو غيره، وهو ما نجده في مقالته عن "ما التنوير" وفي كتاباته الأخرى عن القل.[8]

وعلى هذا النحو، تبلورت المقدمات الفلسفية التي شكلت الأساس النظري لمدرسة فرانكفورت، والتي انطلق منها منظروها في نقدهم لمنتجات الحداثة الغربية والكشف عن ظاهرة أفول العقل في العصر الحديث. ومن الملاحظ أن مدرسة فرانكفورت استمدت كثيرًا من التراث الفكري الغربي، لكنها أعادت توظيفه في بوتقتها الماركسية النقدية. غير أن ماركسيتها لم تكن ماركسية تقليدية، بل كانت ماركسيةً ذات طابع خاص أو "بمذاق خاص" على حسب تعبير ستيفن إريك، والتي تجلت بعد تولي هوركهايمر إدارة المعهد عقب كارل غرونبرغ، الذي غلبت في عهده الماركسية التقليدية. فقد رفض منظرو المدرسة الحتمية الاقتصادية، كما رفضوا التصور المرحلي للتاريخ الذي ينتهي حتميًا بالشيوعية. وبدلًا من ذلك، أولوا اهتمامًا أكبر بتحليل البنية الفوقية، ولا سيما الثقافة والفكر والوعي، مع الحفاظ في الوقت نفسه على أهمية البنية التحتية في فهم الواقع الاجتماعي.[9]

واستنتاجًا من ذلك، نجد أن مدرسة فرانكفورت كانت دائمًا تسير في صيرورة مستمرة من نقد الأفكار والأطروحات والتعديل عليها بما يتلائم مع توجهاتها الفكرية. وهذا ما أتضح أيضًا مع أطروحات كلًا من كانط وهيغل، فنجد أن مدرسة فرانكفورت لم تُبق على العقل في صورته الكانطية أو الهيغلية المجردة والمتعالية، بل أعادت ربطه بشروطه التاريخية والسوسيولوجية، بحيث لم يعد العقل مفهومًا مفارقًا للواقع، وإنما صار يتحدد من داخل المجتمع وعلاقاته وبناه وآليات السلطة الكامنة فيه، وذلك بناءًعلى النظرة المادية الماركسية. ومن ثم، فإن الحرية، المرتبطة بالعمل النقدي للعقل، لم تعد تُفهم فقط بوصفها استقلال الإرادة على نحو أخلاقي مجرد، بل بوصفها أيضًا تحررًا من الواقع الاجتماعي الحديث التي قودت من إمكانية تحقيق الذات، وشوهت من صورة العقل، وجعلته عقلًا إجرائيًا.[10]

والعقل في المنظومة الحداثية، من وجهة منظري الجيل الأول من مدرسة فرانكفورت، أصبح قاصرًا عن تصور واقع بديل ومختلف عن الواقع القائم، إذ لم يعد قادرًا على إدراك الأشياء في صورةٍ تتجاوز ظاهرها، وذلك بسبب تأثره بالمنهجية التجريبية والوضعية التي تركز على الوصف ورصد الوقائع الظاهرة، دون التعمق في بواطن الأمور أو التأمل في أصول الظواهر. وهو ما جعله يدور في دائرة مغلقة من الفهم والنظر في الغايات. فالعقل، الذي كان من المفترض أن يحرر الإنسان، تحول إلى أداة للهيمنة والسيطرة. ومن هنا تحديدًا ارتبط نقد العقل عند مدرسة فرانكفورت بنقد الحداثة ذاتها؛ إذ لم تعد المشكلة في العقل ذاته، بل في تحوله إلى عقل أداتي ينشغل بالحساب والضبط والسيطرة أكثر من انشغاله بالتحرر والحقيقة، وبذلك انقلب الوعد بالحرية إلى صورة جديدة من صور الإخضاع داخل المجتمع الحديث.[11] وهذا ما ينقلنا إلى الجزء التالي، الذي يتناول مفهومي اغتراب الإنسان وهيمنة الفكر الأداتي الإجرائي على العقل البشري.

ب-ثلاثية التشيؤ والاغتراب والعقلانية الأداتية

بحكم اهتمام مدرسة فرانكفورت بالعقل بوصفه الجوهر المميز للإنسان، وبدراسة تراث العقل الأوروبي، سعى مفكروها إلى دراسة تحولات أنماط التفكير الإنساني في ظل الحداثة ومنظوماتها الفكرية، وحاولوا تبيان الكيفية التي جرى من خلالها اختزال معاني العقل، مع التطور العلمي والمعرفي، في مفاهيم وإجراءات تقنية محددة. رأى رواد الجيل الأول من مدرسة فرانكفورت أن العقل في ظل المنظومة المادية والعالم الرأسمالي الحديث قد اختُزل في الأداتية والترشيد البيروقراطي، حيث تحوّل من وسيلة للفهم والتحرر والتأمل إلى أداة للحساب والتنظيم

وإيجاد الحلول العملية. متأثرًا في ذلك بطرق التفكير العلمي التي أوجدتها المنظومة الحداثية. ولقد رأى هربرت ماركيوز، أحد أهم منظري مدرسة فرانكفورت، أن العقل قد غدا باهتًا، لا ينظر إلى جوهره الإنساني بل إلى الأفعال التقنية. فالعقل، في كنف الافتراضات الإمبيريقية، انصرف عن القضايا الكبرى والكلية المتعلقة بما يمكن أن تكون عليه الحرية والعدالة، وأصبح يقصر اهتمامه على كل ما هو إجرائي وعلمي ومحايد.[12]

ويمكن تعريف هذه الظاهرة بما وصفه ماكس فيبر بـ"**العقلنة**" أو "**الترشيد**"، وهو التعريف الذي أنطلقت منه مدرسة فرانكفورت في نقدها لأفول العقل، وهي العملية التي يسعى فيها العقل إلى اختيار الوسائل الإجرائية الأكثر كفاءة لتحقيق غايات محددة، بحيث تغدو فعالية الوسيلة أهم من مشروعية الغاية أو أخلاقيتها، وتترك الأهداف في هذه العملية لاختيار الأفراد، ولا يُسأل عن مشروعيتها ومن هنا يمكن القول إن الحضارة الغربية الحديثة أنتجت ظاهرة جديدة تُصبح فيها الوسائل والإجراءات عقلانية من حيث التنظيم والكفاءة، بينما قد تكون الغايات لا عقلانية، لأنها تُقاس بمدى تحققها وفعاليتها دون إخضاعها لأي تساؤل أخلاقي أو إنساني. وتسري في هذه الحالة قانون مادي يسحب عن الإنسان ذاته من عالم الإنسان إلى عالم الأشياء. ومن ثم يسود منطق الأشياء على الإنسان والأشياء معًا. فيغدو الواقع الاجتماعي حينها محكومًا بقوانين مادية جامدة، وتنزع عن العلاقات البشرية طابعها الإنساني وتُفرغها من محتواها القيمي، ويتحول الإنسان في تلك الحالة إلى كيان وظيفي ضمن نسق الإنتاج والاستهلاك، وتصبح عملية الترشيد منزوعة القيم، أو ما يمكن تسميته بالترشيد المجرد بالقيم.[13]

ومن هنا يظهر مفهوم "**الاغتراب**" كأحد المفاهيم المحورية في المنظومة الفكرية لمدرسة فرانكفورت؛ حيث نجد أن الإنسان، في سعيه للسيطرة على الطبيعة والواقع الاجتماعي من منطلق إجرائي وفي المنظومة الرأسمالية، ينزع عن نفسه صفته الإنسانية، ويغترب عن ذاته وعن نتاج عمله وعن الآخرين الذين يعمل معهم. استمدت مدرسة فرانكفورت مفهوم الاغتراب من هيغل وماركس، لكنها طورته بما يتجاوز البُعد الاقتصادي، بحيث صار يتسع ليشمل الأبعاد النفسية والثقافية والاجتماعية التي تنفصل فيها الذات عن الموضوع، مع التركيز على كيفية مقاومة للاغتراب سعيًا لبلوغ الحرية الإنسانية وتحقيق الذات. ولكن، يبقى السؤال الأهم في الكيفية التي تُعيد من خلالها المنظومة العقلانية الترشيدية إنتاج الواقع الاجتماعي في صيغة جديدة ؟[14]

إن الترشيد المجرد من القيم هو إعادة صياغة للواقع الاجتماعي، يتم فيه تفكيك الإنسان واستبعاد كافة العناصر المركبة التي يتكون منها، ويصبح حينها الواقع الإنساني قائم على المادة المتغيرة الخاضعة للعقلانية العلمية المادية الأحادية. وهذه العقلية تمحو سائر الثنائيات القائمة على وجود أكثر من جوهر أو قانون، وتنكر كل المعايير الأخلاقية الثابتة، وتستبعد كل الخصوصيات المتجاوزة للقانون المادي الواحد، وتتعامل في حدود المقاييس العلمية والكمية. وهذه العملية تتم على مستوى الإنسان، في صيغته الظاهرة والباطنة، ورغم أن العقل الإنساني هو المسؤول عن صياغة العلاقات التصورية والعمليات التفكيكية والتركيبية المختلفة، إلا أنه في تلك الحالة تصبح مرجعيته الأساسية هي المادة أو الطبيعة. ولهذا تبدأ عملية الترشيد في إطار المرجعية المادية المنزهة عن كافة المرجعيات الإنسانية الأخلاقية، وينكفي العقل بذلك تمامًا في المنظومة المادية.

وبذلك تصبح عملية الترشيد قائمة على السؤال عن الإجراءات اللازمة لإنجاز المهام، واستبعاد السؤال عن الهدف من إنجاز هذه المهام.[15] وهذه العملية، في رأي مفكري مدرسة فرانكفورت، قد أنتجت شكلًا جديدًا من العقلانية أسمته المدرسة "**العقلانية الأداتية**" أو "**العقل الأداتي**"، وهو أحد المصطلحات الرئيسية في الجهاز المفاهيمي لمدرسة فرانكفورت.

ويعبر مصطلح "**العقلانية الأداتية**" عن حالة تتحول فيها المعاني إلى أشياء، والبشر إلى أدوات. وهي عقلية تعتمد على الأدوات العلمية والتقنيات، وقد انتزع منها كل المعاني الأخلاقية والفلسفية والغائية، فغاية هذه العقلية هي تحقيق الأهداف المادية والنفعية فقط دون السؤال عن المعنى الأخلاقي من تحقيق هذه الأهداف، وهي العملية التي يصل فيها الترشيد إلى ذروته. ومن ثم تخلق هذه العقلية حالة من فقدان المعنى وتحويل الكائنات والعمليات الحية إلى أشياء جامدة، أو ما أسمته المدرسة ب"التشيؤ". وهذه العقلانية، كانت نتاجًا للحداثة الغربية، وليست استثناءً عن مسار الحداثة والتنوير بل هي جزء أصيل من هذا المسار.[16]

وتؤدي هذه العقلانية إلى إعادة إنتاج لاعقلانية جديدة في إطار تنويري وعلمي ظاهريًا، لكنها تختلف عن اللاعقلانية الأسطورية التي كانت تنبع من الميتافيزيقا القديمة. فبدلًا من الخرافة أو المعتقد الديني، أصبحت العلمانية العلمية نفسها إطارًا لتبرير ممارسات لا إنسانية تُغلف بلغة العقل والعلم. فعلى سبيل المثال، اعتمدت ألمانيا النازية على سردية تفوق العرق الآري وتفضيله على غيره من الأعراق والأجناس، مستندةً إلى ما اعتبرته معايير علمية استنتجها بعض العلماء المرتبطين بالنظام النازي، والذين استلهموا أفكارهم من النزعة الداروينية

الاجتماعية التي بررت التمييز والهيمنة بوصفها امتدادًا طبيعيًا لقانون البقاء للأصلح. ولعل من أهم الأمور التي غيرت من مسار تفكير مدرسة فرانكفورت، من تفاؤلها بالحداثة إلى نقدها، هو ما فعلته ألمانيا النازية من قتل وإبادة باسم العلم.[17]

ولقد نُظر إلى معسكر أوشفيتز الألماني على أنه تجسيد واقعي لأكثر آثار الاغتراب والتشيؤ جذريةً، حيث ظهرت بداخله همجية ووحشية استخدام العقلية الأداتية، وكيفية تحويل الإنسان من معنى وتاريخ إلى مجرد شيء بلا قيمة، يُباد في سياق العلم وتنفيذ الأوامر، حيث كان يتم ترقيمهم، وتعذيبهم بشكل ممنهج وبطرق وأساليب محددة، ثم يحوّل المعتقلون في النهاية بعد قتلهم وحرقهم إلى قمامة وتُجمع جثثهم وتُلقى كنفايات.[18] لقد كانت معسكرات الاعتقال النازية الحدث الفاصل الذي حطم الافتراضات المتفائلة حول فكرة التقدم من أساسها. ومع بقاء صور معسكرات الاعتقال النازية حاضرةً في الأذهان، بالإضافة إلى تدمير المدينتين اليابانيتين هيروشيما وناجازاكي على يد القوات الأمريكية باستخدام القنبلة الذرية، وتدمير المدن الألمانية بوحشية من قبل قوات الحلفاء، وظهور تقارير جديدة عن المعتقلات السوفيتية المعروفة باسم "الغولاغ"، فضلًا عن تصاعد المكارثية في الولايات المتحدة، بدا لمدرسة فرانكفورت أن الحضارة الغربية لم تُنتج التطور الإنساني المنشود، بل أفرزت نزعة بربرية غير مسبوقة. وقد أدرك رواد المدرسة أن شيئًا أكثر من النقد المعتاد للرأسمالية بات مطلوبًا من المفكرين الراديكاليين ومن منظري هذه المرحلة. ومن هنا، نجد أن النازية وما صاحبها من أفعال، بالإضافة إلى بعض ممارسات الدول الغربية والأوروبية الأخرى، كانت بمثابة نقطة تحول في المسار الفكري لمدرسة فرانكفورت، إذ دفعتهم إلى تحليل مدى وحشية العقل الأداتي وتجليات الحداثة الغربية ومنتجاتها التي حولت الإنسان إلى أداة ضمن نظام لا إنساني يُبرر بالعلم.[19]

ولكن بقي السؤال الذي أرق منظري ورواد مدرسة فرانكفورت وهو هل كان هناك إمكانية، ولو باحتمال ضئيل، لتكرار ما حدث في ألمانيا النازية من إبادة عرقية وتدمير ممنهج لبعض الأجناس في مناطق أخرى؟

والإجابة، من وجهة نظر الباحث، هي نعم، فبعد أقل من أربع سنوات على نهاية الحرب العالمية الثانية، اقيمت دولة إسرائيل في فلسطين، وأصبحت الصهيونية بمثابة وجه جديد للنازية، آتية من رحم الحضارة الغربية ذاتها، ومعيدةً نفس الممارسات النازية والديباجات العلمانية. وهذه الدولة لم يكن قيامها مجرد نتيجة لقرار دولي أو إعلان سياسي منفصل عن الواقع، بل ارتبط أيضًا ببنية عسكرية وتنظيمية تشكلت داخل المجتمع الاستيطاني

اليهودي في فلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني. إذ لعبت التنظيمات والعصابات الصهيونية المسلحة، مثل الهاغاناه والإرجون، دورًا محوريًا في فرض السيطرة على الأرض وتهيئة الشروط المادية لقيام الدولة. ومن ثم، غدا العنف عنصرًا أساسيًا في بناء الدولة الصهيونية وتشكلها.

ومؤخرًا ظهر المنطق النازي بشكل واضح في عملية الإبادة المنظمة التي شهدها قطاع غزة، والتي أعادت إلى الأذهان مشاهد العنف والإبادة الجماعية التي عُرفت بها الأنظمة الشمولية في القرن العشرين، وخاصة في ألمانيا. وعليه، يستدعي هذا الواقع تحليل الإطار الفلسفي المشترك بين النازية والصهيونية، واستجلاء أوجه التشابه بينهما في البنية الفكرية والممارسة العملية، اعتمادًا على ما تم ذكره في الإطار التفسيري لمدرسة فرانكفورت، وهو ما سيتم توضيحه في الجزء القادم.

ثانيًا: النازية والصهيونية: آليات واحدة وجذور فكرية مُشتركة

رغم الاختلاف الظاهري بين النازية، باعتبارها العدو اللدود الأول لليهود، والصهيونية، باعتبارها التجسيد الظاهري للروح اليهودية في تكوينها المعاصر، إلا أن الدراسات الحديثة تُظهر وجود علاقة فكرية ومنهجية بين الإيديولوجيتين. فكما استندت النازية إلى استثمار الإطار المعرفي الغربي والعلمانية في تبرير مشروعها العنصري وتنفيذه، نجد أن بعض الأطروحات الصهيونية اعتمدت على نفس المرجعية الفكرية الغربية لتبرير سياساتها التوسعية والاستيطانية. وقد دعم الغرب الصهيونية في محاولة منه لتعويض اليهود عن الأذى الذي لحق بهم، بإنشاء دولة قائمة على العنصرية والعنف والإبادة، وكأن جريمة أوشفيتز يمكن أن تُمحى بارتكاب جريمة أخرى، كما حدث من مذابح في فلسطين، مثل مذبحة دير ياسين، واللد، والرملة، وصفد، والطنطوره، وما تلاها من أحداث لاحقة كمجزرة غزة في الوقت الراهن.

وعليه، يحاول هذا الجزء النظر في الأطر الفلسفية والفكرية العامة بين الأيديولوجيتين، على النحو التالي:

أ-العلم كأساس للتفكير والحركة

وظفت النازية العلم في تنفيذ مشروعها التوسعي العنصري، وفي ترسيخ مقولاتها الأساسية في أذهان الشعب الألماني وتبريرها. واستطاعت خلال سنوات قليلة تحقيق منجزات هائلة سواء في المجال العلمي أو الاقتصادي أو السياسي أو العسكري. وكانت دائمًا تستند في كل مقولاتها إلى تبرير واضح من العلم المنهجي والإجراءات

العملية. كما استندت عليه أيضًا بشكل رئيسي في تنفيذ أغراضها المنفصلة عن الإنسانية، والمتصلة بالحُلم النازي. ومعنى ذلك أن التفكير العلمي الأداتي قد طغى، في تفكير الأيديولوجية النازية، على التفكير الإنساني التأملي والنقدي.

إن المنهجية العلمية الصارمة التي اتبعتها النازية أوصلتها إلى مادية تنكر من خلالها الطبيعة البشرية الإنسانية الثابتة، وتنظر لها على أنها مادة قابلة للاستعمال والتعديل والحوسلة، أي استخدامها كوسيلة لتحقيق الأشياء. وهذه النزعة العلمية القوية جعلت من النازية متفردة عن غيرها من الأيدولوجيات الأخرى. وتنطوي الرؤية النازية للكون على مادية قائمة على قدرة العلم على حل كافة المشكلات والتوصل إلى حلول متعددة، بما في ذلك المشاكل الإنسانية والأخلاقية والروحية، وفي ذلك تقع النازية في نفس الأزمة التي تواجه معظم الرؤى المادية، وهي مشكلة الأساس المعرفي للمنظومة الأخلاقية الإنسانية.

ومن ثم، آمن النازيون بضرورة تطبيق قيم العلم والمنفعة المادية على الإنسان والمجتمع، وبضرورة اتباع الحياد العلمي والأخلاقي، واستخدام المقاييس العلمية الرشيدة دون النظر إلى القيمة الأخلاقية الناتجة عن هذا العلم. وأثر ذلك، تحول البشر في المنظومة النازية إلى مادة يُقاس نفعها، ويُقرر على أساس هذا النفع من يستحق الحياة ومن يتم إبادته. ومن هنا جاء اهتمام النازية بالعلوم المتعلقة بالنفس البشرية وبإعادة تنظيم السياسات البيولوجية من وجهة نظر وضعية مادية، أي أنها وظفت العقل الأداتي في نظرتها إلى الإنسان وشيئته، بحسب تعبير مدرسة فرانكفورت.[20]

ولهذا، لم يكن غريبًا أن تقوم النازية بتنقيح شعبها من كافة العناصر الإنسانية "الضارة" بداخله، دون النظر إلى مدى إنسانية ذلك، وهو نفس المنطق الذي يتعامل به الرأسمالي مع فائض الإنتاج من البضائع والسلع والمواد الضارة. ففي المنظومة الرأسمالية، يتم التعامل مع هذا الفائض على أنه زائد عن الحاجة، خاصة في أوقات الكساد أو الركود، فيتم حينها تصريفه أو التخلص منه، أو عندما يكون هناك عنصر مادي غير نافع. هذا المبدأ هو نفسه الذي قامت عليه معسكرات الاعتقال والإبادة، مثل شلمنو وبلزك وأوشفيتز، في ألمانيا النازية، حيث نفذت بداخلهم سياسات الإقصاء والإبادة. ومن ثم، فإن الإنسان هنا يُعامل بمنطق السلعة ذاتها؛ أي بمنطق القيمة الاستعمالية والمنفعة، وبالتالي فإن العلاقات الإنسانية تنقلب في هذه الحالة إلى علاقات مادية صماء تحكمها الوظيفة المجردة.

رأت ألمانيا النازية، من منطلق حيادي وعلمي، أن هناك بعض الجماعات غير الآرية مثل اليهود والسلاف والغجر وأصحاب التشوهات الخلقية وبعض الجماعات الأخرى زائدون عن الحاجة ولا يقدمون منفعة عملية ويشغلون مساحة في البلاد بدون فائدة تذكر، وبالتالي يجب التخلص منهم ونقلهم وإبادتهم. وهذا المنطق هو نفسه الذي تستعمله السلطات الصهيونية والإسرائيلية مع الفلسطينيين، والذي ظهر بشكل واضح في الحرب الأخيرة التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة، والتي هدفت من خلالها إلى طرد وتهجير الفلسطينيين من القطاع بالكامل أو إبادة عدد كبير منهم. غير أنه يتضح النهج الحيادي العلمي في الخطاب الصهيوني عند استخدام الصهاينة للمصطلحات المحايدة في وصف عمليات الإبادة والإقصاء، فالخطاب الصهيوني لا يتحدث عن طرد الفلسطينيين أو إبادتهم، بل عن "تهجيرهم" أو دمجهم في مجتمعات عربية، وكأن العملية تخلو من أي ممارسات عنيفة.[21] وجدير بالذكر أن منطق فائض السكان، أو فائض الحاجة من السكان، قد تبنته الأيديولوجية الصهيونية في رؤيتها لليهود بوصفهم عنصرًا غير فاعل وغير مندمج في الحضارة الغربية. وبدلًا من السعي إلى حل هذه المشكلة على نحو دموي، اتجهت إلى معالجتها من خلال نقل اليهود إلى مكان آمن بالنسبة إليهم، وهو ما تجسد في فلسطين.[22]

وقد نرى التشابه بين الصهيونية والنازية في توظيفهما للمنهج العلمي في بعض كتابات وآراء بعض الآباء المؤسسين للصهيونية، وخاصة في الصهيونية السياسية. على سبيل المثال، كان أساس اختيار ثيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية السياسية وصاحب كتاب "الدولة اليهودية"، للمكان الذي سيقطن فيه اليهود قائمًا على أُسس علمية ووضعية خالصة، إذ رأى أن عملية نقل اليهود وتوطينهم يجب أن تُستثمر في فرص جيدة، حيث قال: "ينبغي علينا أن نضع في حسباتنا العوامل الجيولوجية والمناخية، أي باختصار، العوامل الطبيعية بجميع أنواعها، مع مراعاة الحذر الكامل، واضعين في حُسباننا أحدث الأبحاث العلمية". وقد كان جل اهتمام هرتزل في مسألة الدولة اليهودية منصبًا على الظروف المناخية والاقتصادية، ولأن هرتزل كان علمانيًا، ويُوصف أحيانًا بأنه كان ملحدًا ورافضًا للدين من حيث أطروحاته الميتافيزيقية الإلهية والأسطورية من وجهة نظره، فإن مشروعه الصهيوني كان ماديًا.[23]

وقد رأى ليون بينسكر، أحد أهم منظري الحركة الصهيونية ومؤسس حركة "محبي صهيون"، بأنه يجب الاهتمام بالقطعة المكانية التي سوف يُستوطن عليها اليهود، وركز في كتابه "التحرر الذاتي" أو "الانعتاق

الذاتي" على ضرورة إقامة وطن قومي آمن لليهود؛ وصرح بأن الهدف الأساسي هو توفير "قطعة أرض" آمنة وقابلة للحياة لليهود، ولم يقم بتحديد موقع واحد محدد بالضرورة.[24] وبالإضافة إلى ذلك، آمن بأن عملية الاستيطان من الممكن أن تتم في أي منطقة على وجه الأرض، حيث قال عن مكان عملية الاستيطان: "في أي من نصف الكرة الأرضية. وهذه القطعة من الأرض يمكن أن تكون رقعة في الولايات المتحدة أو ولاية كتلك التي تقوم عليها مقاطعات باشاوات آسيا التركية".[25]

كما طُرح مشروع شرق أفريقيا "أوغندا" كمكان لاستيطان اليهود في المؤتمر الصهيوني السادس، بناءً على حسابات علمية وجغرافية، والذي قبله كلً من هرتزل وماكس نوردو، غير أن المشروع تم رفضه، رغم ذكر بعض المصادر أنه لاقى تأييدًا كبيرًا، وذلك نتيجةً لرفض بعض الجماعات الصهيونية وتمسكها بالعودة إلى فلسطين.[26]

وعليه، نجد أن مسألة اختيار المكان كانت في البداية مسألة علمية تمامًا، تحولت مع الوقت إلى مسألة تتركز على البُعد الدينية للمكان، ولكن مع نزع قداسة فكرة إنتظار المسيح المخلص الذي سوف يأتي في نهاية الزمان ويعود ببني إسرائيل إلى أرض الميعاد مرة أخرى، ونقلها إلى الحركة الصهيونية.[27] ولهذا، يمكن القول بأن المشروع الصهيوني، منذ بداياته، حمل رؤيةً محددة تسعى إلى خضاع المكان والإنسان لحسابات علمية وإدارية، من خلال جمع الإحصاءات، وفحص الموارد الطبيعية، والتخطيط المركزي للهجرة وتوزيع الأرض، أي إن الاستيطان لم يُعرض بوصفه فعلًا تاريخيًا أو دينيًا فحسب، بل أيضًا بوصفه مشروعًا تقنيًا عقلانيًا يقوم على المسح والتخطيط والتنظيم والإدارة. كما أن دراسات التخطيط المكاني حول الاستيطان الصهيوني المبكر تشير إلى أن التوسع جرى في إطار خطط شاملة هدفت إلى تعظيم استغلال الموارد، واستيعاب موجات المستوطنين، ودمج المستعمرات في شبكة إقليمية فعالة.[28] وبهذا المعنى، فإن التوسع الاستيطاني لا يبدو خارج منطق الحداثة الغربية، أي تلك الحداثة التي تُخضع العالم لقوانين الترشيد والسيطرة وتحول الجغرافيا نفسها إلى مادة هندسية قابلة لإعادة التشكيل.

وبذلك، نجد أن العلم لم يعد توظيفه مقتصرًا على تخطيط الاستيطان في فلسطين، بل اتخذ صورة علم للسلطة، أي يوظف العلم في خدمة السلطة، يشتغل على السكان والأرض والذاكرة معًا. ففي المجال المكاني، تُستخدم أدوات التخطيط الإقليمي والهندسة السكانية بما يخدم إعادة تشكيل الحيز وتثبيت السيطرة. وفي المجال

المعرفي أو الرمزي، توظف الأركيولوجيا أو علم الطبقات أو الأحفوريات بوصفها علمًا يُسخر لإنتاج شرعية تاريخية وسياسية؛ إذ تُستخدم الممارسة الأثرية في الضفة الغربية لإثبات صلة تاريخية وثقافية يهودية بالمكان، بما يساهم في خدمة سياسات السيطرة والإقصاء ويضعف الارتباط الفلسطيني بتراثه ومجاله التاريخي بأثباته عدم وجود صله للفلسطيني بالأرض. ومن هنا يصبح العلم جزءًا من إنتاج الرواية المهيمنة، لا مجرد نشاط معرفي محايد.[29]

وبناءً على ذلك، نجد أن توظيف العلم في كلا الأيديولوجيتين لعب دورًا حاسمًا في تشكيل كتاباتهما وقراراتهما وممارساتهما العملية. وإذا كانت النازية قد وظفت العلم من أجل الضبط البيولوجي والاستبعاد العرقي والإبادة، فإن الصهيونية قد وظفته، منذ بداياتها وحتى صورتها المعاصرة، في التخطيط الاستيطاني، والهندسة السكانية، وإنتاج الشرعية التاريخية.

ب- العرق الأسمى والشعب المختار وعلمنة التراث الديني

تبنت النازية النظرية العرقية الداروينية، وأكدت التفوق العرقي للشعب الألماني على كل الشعوب الأوروبية وغير الأوروبية، في مقولة تشبه المقولة الصهيونية اليهودية بأنهم "شعب الله المختار" ولكن بصورة مغايرة، انطلاقًا من أبحاثها التي أجرتها في مجال العرق والأجناس البشرية، وهي في ذلك لا تنفك عن النسق المعرفي والتطور العلمي في الحضارة الغربية. وقد بيَّن ألفريد روزنبرج – أحد أهم الفلاسفة النازيين – أثناء محاكمته في نورمبرج أن نظرية التفاوت العرقي وتفوق العرق الآري هي نتيجة أربعمئة عام من البحوث العلمية الغربية.[30]

بالإضافة إلى ذلك، انطلقت النازية في تأسيسها لفكرة التميز العرقي أن للشعب الألماني وحدة عضوية توجد بين أفراده من جهة، وبين حضارته وأرضه التي يعيشون عليها من جهة أخرى، ولا يمكن للشعب أن يحقق أقصى إمكاناته إلا بعد أن يتوسع في مجاله الحيوي من أراضٍ محيطة به. وهو بذلك يرى أن الوحدة لا تتحقق إلا من خلال الشعب الألماني صاحب الوحدة العضوية مع الأرض التي تضم العرق الآري، أما العناصر الأجنبية فهي قد تؤدي إلى إعاقة هذا التكامل العضوي، وبالتي هي عناصر ضارة لابد من استبعادها. وعليه، كانت من أبرز المقولات النازية التي اعتمدت عليها في نظرياتها التوسعية والعرقية هي "الدم والتربة". ولقد

استعملت الصهيونية هذه المقولة فيما بعد، وهي مقولة تعبر، كما أوردها الدكتور عبدالوهاب المسيري في كتابه "الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ"، عن "الواحدية المادية الكونية"، حيث يصبح المطلق في هذه الحالة كامنًا في المادة لا متجاوز لها. تجعل هذه المقولة من الشعب الألماني إلهًا ويُنصب على غيرة من الشعوب الأخرى حاكمًا، ويُضفى عليه صفاتٍ مقدسة، فدمه وتربته، بحسب هذا المعتقد، يحويان كل القداسة والحقوق المطلقة الكاملة التي لا يمكن النقاش فيها. وهذه الحلولية هي حلولية بدون إله، وهي تعبر عن ثالوث القومية المتكون من: الدم–التربة – الشعب، وهو ليس إلا صدى للثالوث الحلولي الوثني: الإله – الطبيعة – الإنسان. وفي ذلك، نجد أن الدم أو العرق هو الذي يحل محل الإله ويتحد قي حلولية صوفية مع الأرض. وهو ما تبنتها الأيدولوجية الصهيونية ووجدت طريقها لها.[31]

وقد تُرجمت كل هذه الأفكار إلى العرق الآري أو العرق المتفوق في جميع النواحي، والمُطالب بالسيطرة على كافة الأعراق الأخرى بحكم تميزه عن غيره. وتحتاج "الشعوب العضوية" في هذه الحالة إلى "آخر" أو "عدو" تميز من خلاله هويتها، والآخر هنا هو تعبير عن كل مَن يقف في طريق تحقيق الطموحات والأطروحات النازية بالنسبة للخارج، أو عن الفئات الضارة غيرِ المنتجة والمستهلكة بالنسبة للداخل. وهذا الآخر رأت فيه النازية ضرورةً لإبادته إن كان معارضًا لها أو لا يفيدها. ولكن، بقت المعضلة الرئيسية في النازية في كيفية نشر هذه القيم وإظهارها للعامة دون الصدام مع العقيدة الدينية المسيحية. ولهذا لجأت النازية إلى علمنة المصطلحات في العقيدة المسيحية وإدماجها في منظومتها الفكرية. وقد عملت النازية على تأسيس كنيسة خاصة بها تحمل الطابع القومي، وتجعل الأساس الروحي لها هو القومية الألمانية والوحدة العضوية بين الشعب والأرض.[32]

إذ قامت النازية بإحلال الفكر الديني في الكنيسة القومية، ونزعت عن الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية قداستها، وحاولت تطهير الفكر القومي الألماني من العناصر المسيحية، وجعلت من الفكر المادي وقيم القومية العضوية والولاء الكامل لألمانيا هي الديانة الجديدة في البلاد. وعليه، نجد أن السمة الأساسية للمنظومة النازية هي العلمانية الشاملة والوحدوية المادية الصارمة. إذ أنها جعلت من العرق هو الأساس العقائدي والإيماني في الأيديولوجية النازية. فالروح بالنسبة إليهم، وحسب رأي ألفريد روزنبرج، اتحدت مع العرق وتماثلت معه في كيان واحد. وما العرق إلا التعبير الخارجي عن الروح، وما الروح إلا التعبير الداخلي عن العرق. وأحلت المطلق في

العرق، وجعلته المحرك الرئيسي للتاريخ. ويؤكد روزنبرج أن الروح الألمانية تعبر عن انتصار فكرة الحرية وعن التصوف الحقيقي.[33] وبهذا، نجد أن الخرافة واللاعقلانية والأسطورة أُعيد إنتاجها مرة أخرى من منظور علمي، وهو ما جسد الوجه الآخر أو المشوه للتنوير. وصاحب هذا المنطلق علمنة المصطلحات الدينية، وصبغ ديباجات العلم بأشكال مختلفة من القيم المجردة من المعنى والأخلاق، والمتمركزة هو الطبيعة البشرية الانتقائية. وأصبحت الفكرة النازية قائمة على المادة والأرض والعرق.

وقد وجدت هذه الأفكار طريقها إلى الفكر الصهيوني، حيث استخدمت كلتا الأيديولوجيتين خطابًا محملًا بالمصطلحات القومية العضوية مثل "الشعب العضوي" و"الشعب المختار" وغيرها. وقد قيل إن هتلر، بحسب رواية هيرمان راوشنينغ، سُئل في إحدى المرات عن سبب كرهه للشعب اليهودي فقال: "لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران، ونحن وجدنا شعب الإله المختار. هل هذه إجابة شافية على السؤال؟".[34] وعند النظر إلى الكتابات الصهيونية، نجد أنها تتحدث عن ترابطية الشعب اليهودي بالأرض التاريخية التي فقدها، فنجد أن مارتن بوبر يتحدث عن أن الرابطة التي تجمع بين اليهود وأرضهم، ألا وهي فلسطين، هي رابطة "الدم والتربة"، ومن ثم يُطالب بوبر بناءً على ذلك بضرورة عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين حتى يتفاعل معها الدم اليهودي ويتمكن حينها من إخراج طاقته الكامنة والإبداع من خلالها.

وقد أشار المفكر النازي ألفريد روزنبرج إلى أن بوبر "هو الذي أعلن أن اليهود يجب أن يعودوا إلى أرض آسيا، فهناك فقط يمكن العثور على جذور الدم اليهودي". وتلك المسألة أشار إليها أيضًا الكاتبان الصهيونيان ميخا بيرديشفكي وشاؤول تشرنحوفسكي، حيث تحدثا عن ضرورة العودة إلى الأرض استنادًا إلى فكرة "الشعب العضوي اليهودي". كما أنه تم استخدام مفهوم "الدم اليهودي" لتعريف الهوية اليهودية.[35] وبذلك نجد أن الأيديولوجية الصهيونية تشابهت مع النازية في ترسيخهما لفكرة النقاء العرقي والقومية المميزة، إذ افترضت الصهيونية أن لليهود تاريخًا وعرقًا وثقافةً تميزهم عن غيرهم من الأجناس، وهو ما جعلهم في خانة مغايرة.[36]

غير أن الايديولوجية الصهيونية تشابهت أيضًا مع الأيديولوجية النازية، ومع غيرها من الأيديولوجيات النابعة من الحداثة الغربية، في علمنتها للمصطلحات الدينية أيضًا، إلا أن علاقة الصهيونية بالديانة اليهودية تختلف إلى حد ما عن علاقة النازية بالمسيحية، فالعلاقة بين الفكر الصهيوني والديانة اليهودية هي علاقة معقدة ومركبة إلى حد بعيد، وتتجلى في ثلاثة مستويات أو مواقف رئيسية، متباينة بل ومتناقضة في بعض الأحيان،

وهم: موقف الرفض للدين اليهودي، وهو ما يمكن أن نتبينه من كتابات الصهاينة اليهود الأوائل مثل تيودور هرتزل، وماكس نوردو، وحاييم وايزمان، وموقف استغلال الدين اليهودي، وهي في ذلك لا تختلف عن أي أيديولوجية علمانية أخرى في توظيفها للدين واستغلاله، أما الموقف الثالث، فيتمثل في أن الأفكار السياسية للأيدولوجية الصهيونية مستقاة من العقيدة اليهودية ومن البناء الفكري والأسطوري للديانة اليهودية وتراثها.

ولهذا، نجد أن علاقة الفكر الصهيوني بالأفكار الدينية متغيرة في تفاعلها، إذ تقوم على التوظيف والحذف والتعديل لعناصر من الدين اليهودي بما يخدم الفكر الصهيوني. وفي هذا إطار، يتم علمنة الفكرة الدينية بشكل رئيسي وإخراجها من الحيز الإلهي إلى الحيز البشري، وكذلك توظيفها في خدمة الشعب اليهودي أو القومية اليهودية، حيث تتمثل العلمانية الصهيونية بشكل رئيسي في إنها نقلت عودة الشعب اليهودي من أمر إلهي خلاصي وحولته إلى فعل إنساني إرادي مجرد من التدخل السماوي. هذا ما ميز الحركة الصهيونية، إذ باشرت العمل من أجل عودة اليهود إلى فلسطين، ولم تنتظر مخلّصهم أو الأمر الإلهي بالرجوع إليها وفق المعتقد اليهودي.[37]

ج-النتشوية الداروينية وإرادة القوة

إن الحضارة الغربية الحديثة، بحسب تعبير الدكتور عبدالوهاب المسيري، هي حضارة نيتشوية داروينية تقوم على آلية تمجيد القوة، وتجعلها الوسيلة الرئيسة في إدارة الصراعات والأزمات. كما تجعل مصلحتها الذاتية هي المعيار الوحيد والأوحد في الحكم على الظواهر والوقائع. ناهيك عن أن هذه الحضارة هي إمبريالية في جوهرها وعنصرية متمركزة حول ذاتها، لا ترى الآخر إلا من خلال الرؤية النفعية المادية في استعماله وتوظيفه لخدمة أغراضها. وهذا هو الجوهر المشترك بين كل من النازية والصهيونية، اللتين تستندان إلى منطق القوة والتفوق العرقي بوصفه أساسًا للوجود والسيطرة وهذا المعطى يلتقي مباشرة مع نقد فرانكفورت للمجتمع الحديث حين تُختزل العلاقات الإنسانية في السيطرة والفعالية والتفوق، ويغدو معيار القوة والسيطرة هو المرجع الأعلى بدل الحقيقة أو العدالة.[38]

تحمل النتشوية في طياتها فكرة محورية وهو مفهوم "الإنسان الأعلى" أو "السوبرمان"، إذ تُدعوا هذه الفكرة إلى ضرورة الوصول إلى أفضل صورة ممكنة من الإنسان، والعمل على تحقيق ذلك مهما تطلب الأمر. وقد عمدت النازية على تطبيق هذا المفهوم بطريقتها الخاصة، عن طريق تصفية الآخر المعادي لها والذي سيمنعها

من تحقيق الوصول إلى الإنسان الكامل، ومن خلال القضاء على العناصر الضعيفة وغير المنتجة في المجتمع الألماني، واعتبروا أن هذه العملية تُقوي وتُعزز من مكانة العرق الآري، وتضمن نقاءه الحيوي.[39] وفي هذه الحالة تغدو الذات الإنسانية مجرد مادة في مشروع كلي أعلى، وهو ما يشبه ما انتقده ماركيوز في كتابه "الإنسان ذو البُعد الواحد" حين يُسحق الفرد داخل منطق الكفاءة والقوة والامتثال الكلي، ويُعاد تصنيفه وتشكيلة ضمن منظومة واحدة.

ويمكن ملاحظة هذا التشابه بين الصهيونية والنازية في هذه النقطة، فجوهر الفكر الصهيوني لا يختلف عن جوهر الفكر الغربي الحداثي القائم على أفكار كل من الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، وعالم الأحياء الإنجليزي تشارلز داروين. وهي الأفكار التي ترى أن العالم يتقدم بفعل القوي الذي يُكتب له البقاء نتيجة لصموده ومقاومته، أي أنها تُعلي من شأن القوة والسيطرة وتجعل من العالم وكأنه مختزل في معنى واحد، وهو إرادة القوة. وتلك الأفكار التي وُظفت في الصهيونية تعمل دائمًا على التخلص من الغير، المتمثل في العربي المختلف عن الإسرائيلي، وتتحدث عنه كما لو أنه غير موجود. وهذا ما يمكن التماسه في مقولة "أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض"، وهي مقولة تفترض غياب الآخر وعدم وجوده. وهو ما يعني أن الممارسات كانت وما زالت تستخدم مبدأ الإبادة واستراتيجية المذابح الجماعية عند دخولها في أي حرب تجاه الأراضي الفلسطينية، لأنها تريد بالفعل تطهير الأرض من سكانها الأصليين أو تهجيرهم منها بشكل نهائي. وتلك الحالة تذكرنا بالنازية، فقد صرح هتلر في إحدى خطبه أن الحرب التي تخوضها ألمانيا النازية ضد عناصر المقاومة في شرق أوروبا لا تختلف كثيرًا عن كفاح البيض في أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر. وعليه، كان هتلر يشير إلى أوروبا الشرقية باعتبارها "أرضًا عذراء" أو "صحراء مهجورة"، تمامًا كادعاءات الإيديولوجية الصهيونية في إنكارها للحقوق الفلسطينية.[40]

غير أنه يمكن ملاحظة التأثير النتشوي الداروينى في فكرة بناء "الإنسان الأعلى" وتحقيق "السوبر أمة"، أي الأمة المنقحة والقوية، في العديد من الكتابات الصهيونية مثل كتابات الصهيوني الاشتراكي أهارون جوردون، والصهيوني السياسي نيتان كلاتزكين، حيث ذُكر في كتاباتهما أن أراضي يهود الشتات ما هي إلا مستعمرات تابعة للدولة الصهيونية وما هؤلاء اليهود إلا وسيلة لتحقيق الغاية الكبرى وهي وجود وبقاء الدولة الصهيونية والنخبة الصهيونية. فالصهيونية بذلك لا تهتم بسعادة ورفاهية الأفراد، بل إنها تهتم بتحقيق غاية التقدم والتطور،

حتى وإن جرى ذلك على حساب اليهود الضعفاء. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الفكر الصهيوني، مهما اختلفت مسمياته وأشكاله، لا يخرج عن إطاره العام وجوهره الأساسي، وهو تقديس القوة حتى لو على حساب اليهود.[41]

وقد تجلت هذه الفكرة في الحرب الأخيرة على غزة، إذ كان نتنياهو مدركًا تمامًا أن الأسرى الإسرائيليين يقعون في نطاق القصف، ومع ذلك لم يهتم بهم، حيث رأى أن مصلحة الدولة الصهيونية تقتضي أن يتم طرد وتهجير سكان قطاع غزة وإبادتهم، حتى وإن جرى ذلك على حساب الأسرى، فمن منطلق نتشوي داروينى كان يُنظر إلى هؤلاء الأسرى على أنهم من اليهود الضعفاء، ويجب أن تحتفظ الدولة بصورتها القوية حتى وإن جرى قتلهم في عمليات القصف والإبادة.

وعند النظر بشكل أعمق إلى توجهات الجيش الإسرائيلي وبروتوكولاته المنظمة، نجد أن هناك توجه عسكري يُسمى " إرشاد هانيبال" أو "بروتوكول هانيبال"، وهو توجه ظهر في ثمانينات القرن الماضي بشكل سري غير مُعلن، وتم اعتماده والإعلان عنه في عام 2006، ويهدف إلى منع وقوع الجنود في أيدي العدو بأي ثمن، حتى لو تطلب ذلك قتلهم، غير أنه أُلغي لاحقًا على يد رئيس الأركان الإسرائيلي غادي أيزنكوت عام 2016، إلا أنه عاد إلى الظهور مرة أخرى بصورة غير رسمية في حرب غزة الأخيرة. ويُعد هذا البروتوكول تجسيدًا عمليًا للفكرة النيتشوية الداروينية في بعدها الجمعي، حيث تُقدم مصلحة الدولة الصهيونية، في تجسيدها المطلق، أو من خلال نخبتها العسكرية والسياسية الصهيونية، على مصلحة الفرد. كما أن هذا البروتوكول يُجسد، من منظور أخر، أولوية تحقيق الأهداف دون الحاجة إلى النظر في القيمة الإنسانية للفرد.

وعليه، يُنظر إلى التضحية بالأسير في هذه الحالة باعتبارها حفاظًا على "قوة الأمة" ومنعًا لانكسار رمزها وقوتها العسكرية. ورغم أن هذا التوجيه يُقدم في الخطاب الإسرائيلي بوصفه إجراءً أمنيًا براغماتيًا، فإنه يستبطن في جوهره تصورًا فلسفيًا ذا جذور نيتشوية داروينية، يقوم على تمجيد القوة وتغليبها على القيم الإنسانية والأخلاقية التقليدية، ويجعل من "إرادة القوة" الأساس العملي للحركة والتفكير.[42]

وهكذا، يمكن القول إن تتبع الجذور الفكرية والتاريخية للصهيونية يُظهر بوضوح أنها ليست فكرة نابعة بشكل خالص من داخل التراث والديانة اليهودية فحسب، بل هي في جوهرها تجسيد للمنظومة الفكرية الغربية الحديثة التي صاغت نظرتها لليهود ضمن مشروعها الاستعماري، وهو ما يفسر التشابه البنيوي بين الصهيونية والنازية.

فكلاهما يقوم على رؤية عرقية نفعية ترى الإنسان وسيلة لخدمة غاية محددة، وتستند إلى منطق مادي إجرائي مجرد من القيم. ومن ثم، فإن التأمل، انطلاقًا من وظيفة العقل، في البنية الفكرية لكلّ من الصهيونية والنازية يكشف عن أنهما صورتان لوجه واحد من وجوه العقل الغربي الحديث، ذلك العقل الذي تحول، كما ترى مدرسة فرانكفورت، من أداة للتحرر إلى وسيلة للهيمنة والسيطرة. فكلتاهما تمثلان تطبيقًا متطرفًا لـ"العقل الأداتي" الذي يُخضع الإنسان للغايات المادية ويُفرغ القيم من مضمونها الأخلاقي لصالح الكفاءة والمنفعة والهيمنة، مبررة أفعالها دائمًا بمنطق "علمي محايد". وبالتالي، تُصبح الإبادة والاستيطان وجهين متقابلين لآلية عقلانية واحدة، تسعى إلى السيطرة باسم التقدّم والعلم، في مفارقة تكشف عن الانفصال العميق بين العقل والأخلاق في الحضارة الغربية الحديثة.

ثالثًا: الممارسات الصهيونية والمنطق النازي في الحرب الإسرائيلية على غزة

تُعد الحرب الإسرائيلية الأخيرة على غزة نموذجًا واضحًا لتجلي المنطق الأداتي في تحويل الإنسان من جوهر أخلاقي وبشري إلى "شيء" يُستهدف ويُدمر ويُزال كما يُزال الجماد والركام. وفي هذا تعبير دقيق عما وصفته مدرسة فرانكفورت بـ"التشيؤ"، أي تحويل الإنسان إلى موضوع أو أداة فاقدة للقيمة الإنسانية. هذا المنطق الذي تتجلى فيه هذه العقلية يُذكرنا إلى حد بعيد بالعقلانية النازية التي بررت العنف والإبادة كوسائل "مشروعة" لتحقيق غايات الدولة والأمة. فكما سعت النازية إلى فرض سيادتها عبر فكرة "التطهير" و"الحفاظ على النقاء العرقي"، تمارس الصهيونية سياساتها العدوانية تحت ذريعة "الأمن القومي"، و"حق الدفاع عن النفس"، لتبرير الإبادة الممنهجة للشعب الفلسطيني وإخضاعه ضمن منظومة السيطرة الاستعمارية، وهي في ذلك تستخدم مصطلحات محايدة ومنطقية لإضفاء الشرعية على تصفية الآخر، وهو الفلسطيني.[43]

ولا تكتفي الصهيونية بإيجاد المبررات المنطقية والعقلانية لتمرير الإبادة، بل تسعى أيضًا إلى نزع الطابع الإنساني عن الفرد الفلسطيني، وتحويله إلى مرتبة أقل من البشر العاديين، وهو ما يمكن ملاحظته بوضوح في الخطابات الصهيونية الصادرة عن القادة الإسرائيليين. فعلى سبيل المثال، ذكر وزير الدفاع الإسرائيلي السابق "يؤآف غالانت" في خطاب له يوم 9 أكتوبر 2023 أنهم لا يحاربون بشرًا عاديين بل إنهم يحاربون "حيوانات بشرية"، وأضاف قائلًا "يجب أن نتصرف معهم وفقًا لذلك."[44]

كما وصف السفير الإسرائيلي السابق لدى الأمم المتحدة دان جيلرمان، في مقابلة تلفزيونية بتاريخ 27 أكتوبر 2023، الفلسطينيين بأنهم "حيوانات بشرية غير إنسانية".[45] ويكشف هذا الخطاب عن بنية فكرية تُشرعن الإبادة من خلال تجريد الضحية من إنسانيته، وهو ما يُعيد إلى الأذهان الممارسات النازية في سعيها إلى نزع الصفة الإنسانية عن أعدائها. فقد عملت آلة الدعاية النازية، والتي كانت تُعتبر من أقوى أجهزة الدعاية في عصرها، بقيادة يوزف غوبلز على تصوير اليهود بوصفهم "مخلوقات دون البشر". ومن أبرز الأمثلة على ذلك فيلم "اليهودي الأبدي" الذي أخرجه فريتز هيبلر، حيث صوّر اليهود فيه على أنهم "طفيليات ثقافية متجولة"، كما قدمت بعض الدعايات النازية صورًا تُشبه اليهود بالقردة أو بالكائنات والأجناس المتدنية عرقيًا. وإلى جانب ذلك، سعت آلة الدعاية النازية إلى تصوير ألمانيا على أنها ضحية لليهود ولعقوبات الحلفاء، في محاولة منها لكسب شرعية ما لأفعالها أمام العالم. هو الأسلوب ذاته الذي تتبعه آلة الدعاية الصهيونية في تصوير نفسها على أنها ضحية الهولوكوست والاضطهاد الغربي، من أجل كسب شرعية لجرائمها وأفعالها من المجتمع ادولي، ودعم مواقفها.[46]

وتُوصف أحيانًا أجهزة الدعاية الإسرائيلية على أنها من أقوى أجهزة الدعاية في العالم، إذ تخلق حيزًا تُشكل من خلاله الآراء الداعمة لها، وتُخفي به أمام العالم مجازرها ضد الإنسانية وانتهاكاتها المستمرة لحقوق الإنسان. وتستخدم إسرائيل في هذا السياق جهازها الدعائي الشامل، المتمثل في الإعلام، والدبلوماسية، وجماعات الضغط، والمعروفة باسم "الهاسبارا"، وهي كلمة عبرية تعني "الشرح" أو "التفسير" أو "التوضيح". وهي العملية التي يتم من خلالها بناء صورة الدولة الإسرائيلية في الخارج، وأيضًا من أجل تفسير سياساتها، وتقديم تقارير عن الأحداث، ونشر معلومات إيجابية عنها لمواجهة أي نقد تتعرض له.[47]

وفي هذا السياق، يبرز البُعد الفرانكفورتي في تحليل البنية الخطابية والإعلامية للدولة الإسرائيلية، التي تعمل وفق آلية "صناعة الثقافة" بالمعنى الذي قصدته مدرسة فرانكفورت. فالمجتمع الصهيوني ينتج سردياته العنفية عبر منظومة إعلامية وثقافية تُعيد صياغة الوعي الجمعي للجمهور ليقبل الإبادة بوصفها ضرورة أمنية وقومية، تمامًا كما كانت الدعاية النازية تُمجد الحرب والإبادة بوصفها خلاصًا قوميًا، وتنقيحًا للعرق أو الشعب الأقوى. وبالتالي، يتحول القصف الإسرائيلي إلى مشهد بطولي، وتُعاد صياغة الحقيقة لتخدم غاية الحفاظ على النظام، لا على الإنسان. ويُختزل المواطن الفلسطيني حينها إلى عنصر تهديد أو عائق ديموغرافي، ويتحول الإنسان

إلى موضوع تقني قابل للإزالة أو الإزاحة. فالعنف هنا لا ينبع من الكراهية وحدها، بل من نظام معرفي وأخلاقي متكامل ومنتظم يجعل من القتل إجراءً عقلانيًا رشيدًا ومشروعًا، وتتحوّل عقلانية الترشيد حينها إلى عقلانية تدميرية كاملة، يُوظف من خلالها جميع الوسائل والأساليب للقتل.

ومن تجليات هذه العقلانية هو استخدام سلطات الاحتلال لبرامج الذكاء الاصطناعي للتحديد وقصف الفلسطينيين بشكل منهجي وتقني ومنظم، وكان من أبرزها برنامج "لافندر" الذي يقوم بتوليد عشرات الآلاف من "الأهداف البشرية" للاغتيال بدعوى انتمائهم المزعوم إلى الأجنحة المسلحة لحماس أو الجهاد الإسلامي الفلسطيني. لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد فقط؛ فهذه النتائج تدخل في نظام تتبّع آلي يُعرف باسم "أين أبي؟"، وهو الذي يترصد الهدف حتى يقتله داخل منزله وسط عائلته، ومن ثم يُقتل كل أفراد العائلة، وغالبًا عشرات الأفراد من الفلسطينيين المجاورين له.

كما طورت إسرائيل برنامجًا آخرًا لتوليد الأهداف بالذكاء الاصطناعي يُعرف باسم "حبسورا" أو "الإنجيل". فبينما يولد "لافندر" أهدافًا بشرية، يميز "حبسورا" المباني والمنشآت التي يزعم الاحتلال الإسرائيلي أنها تُستخدم لأغراض عسكرية. وقد صرح ضابط مخابرات إسرائيلي سابق أن هذه التقنية تُمكن الجيش الإسرائيلي من تشغيل "مصنع اغتيالات جماعية". وعليه، نجد أن الإفراط في الاعتماد على هذه الأنظمة يُضفي مظاهر من "العقلانية" و"الترشيد" على الدمار الذي ألحقته إسرائيل بغزة. قد تُحدد ما يُسمى بـ"الأنظمة الذكية" الهدف، لكن القصف يُنفذ بذخيرة "غبية" غير موجهة وغير دقيقة، وذلك من أجل تحقيق أكبر قدر من الدمار والقتل.[48]

إن الإبادة في هذه الحالة لا تُمارس بوصفها فعلًا رديئًا أو شريرًا، بل بوصفها إجراءًا تقنيًا ضمن الحسابات والإجراءات المعطاة، حيث تتحول حياة الفلسطينيين إلى معطيات إحصائية في جداول الاستهداف، تمامًا كما تحول الإنسان في معسكر أوشفيتز إلى رقم في تعداد الضحايا والجرحى. وبهذا يتلاقى كلا المشروعين في الممارسات العملية التي تهدف إلى إضفاء معنى لا أخلاقي على الوجود الإنساني، تحت غطاء الترشيد والفعالية.

هذه الإبادة المنظمة التي نتج عنها دمار هائل في غزة، تتشابه إلى حد كبير مع أفعال ألمانيا النازية في قصفها وتدميرها للمدن. إذ نجد أن كلا النظامين اعتمد على سياسة "الأرض المحروقة" التي تهدف إلى تدمير كافة القرى والمدن والمنشآت الحيوية والبُنى التحتية، وحرق كافة الأراضي الزراعية التي تُنتج ثمار الشعب

المستهدَف. ففي الحالة النازية، قامت ألمانيا خلال احتلالها للمدن وانسحابها منها بتدمير كافة المرافق والمنشآت، وذلك كما حدث في أراضي الاتحاد السوفييتي التي انسحبت منها ألمانيا، وأثناء احتلالها لبولندا. وقد كانت هذه الرؤية نابعة من رؤية عنصرية شاملة ترى في الشعوب الدنيا، الأقل تطورًا من الشعب الألماني، شعوبًا لا تستحق الحياة أو الأرض، فكانت الإبادة الشاملة للأرض جزءًا من سياسة "التطهير العرقي".[49] وبالمثل، يعمل الاحتلال الإسرائيلي على تدمير الأراضي الفلسطينية التي يحتلها، مثل غزة، إذ عمد إلى تدمير المنشآت الحيوية والأراضي الزراعية والقرى والمدن، في دلالة واضحة على تشابه الأفعال بين النظامين النازي والصهيوني. وتُشير العديد من التقارير الدولية إلى أن الأراضي الصالحة للزراعة في غزة باتت أقل من 5٪ بسبب التدمير الواسع للبنية التحتية، كما تناولت تقارير أخرى انهيار شبكات المياه والصرف الصحي والمرافق العامة، وتأثير ذلك على القطاع الزراعي والصحي، ناهيك عن التدمير الممنهج لقطاع التعليم والكهرباء وغيرها.[50] كما تُظهر لنا التجربة التاريخية أيضًا جزءًا من سياسة "الأرض المحروقة" عند انسحاب القوات الإسرائيلية منها، فعندما اتفقت إسرائيل مع الجانب السوري على إرجاع جزء من أراضيها المحتلة في الجولان بعد اتفاقية فك الاشتباك 1974، وهي مدينة القنيطرة، قامت السلطات الإسرائيلية بتدميرها، تمامًا كما فعلت النازية مع الأراضي التي انسحبت منها في الاتحاد السوفييتي.[51] وبهذا، نجد أنه يمكن النظر إلى هذا التشابه بين النازية والصهيونية بوصفه ليس مجرد تكرار تاريخي للأفعال أو الممارسات، وإنما باعتباره امتدادًا لبنية فكرية واحدة.

وختامًا، يمكن القول إن ما يجري اليوم في غزة لا يمكن فهمه وتفسيره بوصفه حدثًا معزولًا عن مسار التاريخ الغربي الحديث، بل هو امتدادٌ للنسق الفكري الغربي القائم على العقلانية الأداتية التي تُفرغ الإنسان من إنسانيته وتُعيد تعريفه وفق معايير المنفعة والهيمنة. فالصهيونية والنازية تمثلان وجهين متناقضين ظاهريًا لعملة واحدة هي أزمة الحداثة الغربية ذاتها، حيث تُقدس القوة على حساب الكرامة. والتشابه بينهما ليس مجرد مصادفة في الممارسات أو الخطاب، بل هو انعكاس لجوهر واحد يرى في الآخر المختلف مخلوقًا أدنى في تكوينة من سائر البشر، يجب تسخيره أو إبادته حفاظًا على "نقاء الجماعة" أو "تفوق الأمة" أو "الشعب المختار". ومن ثم جاءت الحرب على غزة لتكشف عن انهيار القيم الإنسانية في مشروع الحداثة حين ينفصل العقل عن الأخلاق ويغدو أداةً في خدمة النظام، ويُختزل الإنسان إلى رقم في معادلة النفوذ والسيطرة.

وعليه، فإن ما تعانيه غزة في الوقت الحالي من دمار وتشريد وإبادة هو نتاج الأفكار العقلانية والتنويرية التي كان من المفترض أن تُحرر الإنسان وتسير به في طريق التقدم، إلا أن هذه العقلانية الغربية تحققت من خلالها أقصى درجات الاغتراب والتشيؤ، وأُسست على آثرها منظومة "الحل النهائي" التي أرادت أن تمحو الإنسان المختلف باسم التقدم والحضارة، وهو ما مارسته النازية قديمًا والصهيونية حديثًا.

وهكذا تغدو غزة ليست فقط ساحةً لصراع سياسي أو عسكري، بل اختبارًا أخلاقيًا لحقيقة الإنسان المعاصر، وموضوعًا لطرح العديد من الأسئلة التي يتمحور حولها الإنسان، ومكانًا نبحث فيه عن الإجابات الملائمة للقضايا الأخلاقية والقيمية.

---

[1] تأسست مدرسة فرانكفورت، تحت مسمى "معهد البحث الاجتماعي"، على يد البروفيسور النمساوي الماركسي "كارل غرونبرغ" في عام 1923 في مدينة فرانكفورت الألمانية. وقد اتبعت هذه المدرسة في بدايتها النهج الماركسي التقليدي في التحليل، وصاغت أطروحاتها في البداية على أساس الماركسية التقليدية المتفائلة بالحتمية الاشتراكية وبقدرة الطبقة العاملة على إحداث تغير حقيقي في مسار التاريخ. غير أن المدرسة لم تستمر على النهج الماركسي الأرثوذوكسي، بل بدأت تتحوّل تدريجيًا، خاصةً مع تولّي ماكس هوركهايمر رئاسة المعهد عام 1930؛ إذ شهدت هذه المرحلة نشوء النظرية النقدية تحت تأثيره ونفوذه، واعتبرت بداية الانطلاقه الفكرية والحقيقية للمدرسة في عهده، وبدأت آنذاك في إعادة تعريف علاقتها بالماركسية، فلم تعد تلتزم بها التزامًا حرفيًا، بل مارست نقدًا لها وانتقت منها ما يتوافق مع مشروعها التحليلي والاجتماعي الجديد. ولقد مرت المدرسة وأطروحاتها بتحولات متعددة مع تطورها؛ فلم تبق على صورتها الأولى عند النشأة، ولا على الأطروحات التي قدمها رواد الجيل الأول منها.

المرجع: آلن هاو، ترجمة: ثائر ديب، **"النظرية النقدية"**، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2015)، ص33-36.

[2] ستيفن إريك برونر، ترجمة: سارة عادل، **"النظرية النقدية: مقدمة قصيرة جدا"**، (القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2016)، ص55-56.

[3] آلن هاو، ترجمة: ثائر ديب، **"النظرية النقدية"**، مرجع سبق ذكره، ص41-42.

[4] المرجع السابق، ص23-24.

[5] "الديالكتيك" أو "الجدل"، في معناه الواضح الذي وضعه هيغل، هو المبدأ الآخذ بالتناقض القائم بين الأفكار والأشياء، ويستند إلى ثلاثة مكونات رئيسية، وهي: الثابت أو الفرضية، والنفي أو النقيض، ونفي النفي أو الفكرة المركبة. ويفترض هذا المبدأ أن الشيء لا يبقى على حاله لحظة واحدة، بل يخضع لتطور مستمر، حيث إن الأصل هو تطور الأشياء. ويتحقق هذا التطور عندما تتناقض الأفكار والأشياء، مُشكّلًا بذلك واقعًا جديدًا أو فكرة جديدة، يظهر له نقيضه أيضًا، وتستمر عملية التطور بهذه الطريقة. فكل شيء وكل فكرة تحمل نقيضها، ويتصارع كل منهما مع الآخر حتى يرتقي ويصل إلى مرحلة المكون المركب أو نفي النفي. ولذلك، يرى هيجل أن التاريخ يتطور نتيجة لتسلسل المتناقضات والصراع القائم بين الفرضية والنقيض.

المرجع: د. حازم الببلاوي، **"دليل الرجل العادي إلى تاريخ الفكر الاقتصادي"**، (القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1996)، ص90-91.

[6] حاج علي كامل، **"النقد بين المفهوم والمهمام: مدرسة فرانكفورت نموذجًا"**، مجلة المدونة، مج8، ع1، 2021، ص474.

[7] أخذ كارل ماركس وفريدريك إنجلز الجدل الهيجلي في تحليلهما للواقع الرأسمالي وللتاريخ البشري، لكنهما قاما بقلب هذا المنهج رأسًا على عقب. إذ كانا ماديين في فكرهما، متأثران بفكر الفيلسوف المادي لودفنغ فويرباخ، على خلاف مثالية هيغل. وبالتالي، رأى ماركس أن عالم الأفكار ليس إلا نتاجًا للواقع والعالم المادي بعلاقاته الموضوعية، وأن الوعي والثقافة والفن والدين ليسوا سوى نتاج لهذا الواقع المادي المرتبط بوسائل الإنتاج والعوامل الاقتصادية، أخذًا في الاعتبار أن تلك العلاقة ليست أحادية الاتجاه، بل هي علاقة تفاعلية وتبادلية بين البنية الفوقية، التي تتضمن الفن والثقافة والفكر والدين، والبنية التحتية، التي تشمل وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج، أي البنية الاقتصادية.

المرجع: د. حازم الببلاوي، **"دليل الرجل العادي إلى تاريخ الفكر الاقتصادي"**، مرجع سبق ذكره، ص92.

[8] حاج علي كامل، **"النقد بين المفهوم والمهمام: مدرسة فرانكفورت نموذجًا"**، مرجع سبق ذكره، ص473.

[9] ستيفن إريك برونر، **"النظرية النقدية: مقدمة قصيرة جدا"**، مرجع سبق ذكره، ص10.

[10] حاج علي كامل، **"النقد بين المفهوم والمهمام: مدرسة فرانكفورت نموذجًا"**، مرجع سبق ذكره، ص475-477.

[11] آلن هاو، ترجمة: ثائر ديب، **"النظرية النقدية"**، مرجع سبق ذكره، ص25.

[12] ستيفن إريك برونر، **النظرية النقدية: مقدمة قصيرة جدا"**، مرجع سبق ذكره، ص93-96.

[13] آلن هاو، ترجمة: ثائر ديب، **"النظرية النقدية"**، مرجع سبق ذكره، ص26-27.

[14] ستيفن إريك برونر، **النظرية النقدية: مقدمة قصيرة جدا"**، مرجع سبق ذكره، ص41-47.

[15] د.عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة"**، (القاهرة، دار الشروق، 1997)، ص248.

[16] محمد علي فرح، **"صناعة الواقع: الإعلام وضبط المجتمع: أفكار حول السلطة والجمهور والوعي والواقع"**، (بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات، 2014)، ص124.

[17] د.عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة"**، مرجع سبق ذكره، ص30.

[18] Auschwitz-Birkenau State Museum. "**Prisoner Numbers in the System of German Nazi Concentration Camps**." Accessed October 20, 2025. Prisoner numbers / Information on victims / History / Auschwitz-Birkenau

[19] ستيفن إريك برونر **النظرية النقدية: مقدمة قصيرة جدا"**، مرجع سبق ذكره، ص12.

[20] د.عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة"**، مرجع سبق ذكره، ص55-56.

[21] المرجع السابق، ص133.

[22] تقوم الصهيونية على أساس مجموعة من المسلمات والأفكار، أسماها الدكتور عبد الوهاب المسيري ب**"الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة"**، ترى أن اليهود شعب عضوي متماسك، وغير نافع، وغير قابل للاندماج في المجتمع الأوروبي. ولكي يكون نافعاً وذا وظيفة، يجب عليه أن يُنقل إلى مكان آخر خارج أوروبا لكي يتحول إلى شعب نافع ذا وظيفة، ويتم توظيف ذلك الشعب لخدمة مصالح القوى الأوروبية الاستعمارية، التي ستقوم بحمايته في وطنه الجديد. وتلك الصيغة تضرب بجذورها في موقف الحضارة الغربية من الجماعات اليهودية، فكما قال الدكتور المسيري بأن ذلك الموقف "هو موقف صهيوني وموقف معاد لليهود في آن واحد"، فنجد أن فكرة معاداة الشعب اليهودي المنبوذ وعدم نفعيته هي الأرض المشتركة بين الصهيونية ومعاداة اليهود. ولكن الفرق بينهما يكمن في أن الصهيونية تحاول أن تجد حلاً يلائم اليهود ويضمن سلامتهم، وذلك بنقلهم بشكل آمن ومنظم إلى أراضيهم الجديدة، بينما الآخرى، أي القوى الغربية الأخرى، ترى أنها تريد تهجير اليهود والتخلص منهم بأي طريقة، حتى وأن تطلب ذلك إبادتهم كما فعلت النازية.

المرجع: د.عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والحضارة الغربية"**، (القاهرة، دار دون، 2019)، ص133-135.

[23] د.عبدالوهاب المسيري، **"الأيدولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم إجتماع المعرفة (القسم الأول)"**، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1982)، ص217-218.

[24] Pinsker, Leon. "**Auto-Emancipation**". Translated by David Blondheim. In Road to Freedom: Writings and Addresses, edited by Benzion Netanyahu, 74-95, 105-106. New York: Scopus Publishing Company, 1944. https://www.posenlibrary.com/entry/autoemancipation.

[25] د.عبدالوهاب المسيري، **"الأيدولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم إجتماع المعرفة (القسم الأول)"**، مرجع سبق ذكره، ص218.

[26] المرجع السابق، ص219.

[27] من المعروف أن اليهود كانوا يجرمون ويحرمون الرجوع إلى فلسطين بغرض الاستيطان أو الإقامة بها، لأنه بذلك يخالف الوصايا الربانية التي تجعلهم ينتظرون مخلصهم الذي سيأتي في نهاية الزمان لكي يجمعهم ويعود بهم إلى أرض الميعاد. ولكن الأنظمة الغربية وجدت أن الحل الوحيد لتلك المسألة يكمن في الرؤية الاستعمارية الغربية، وهي تصدير اليهود إلى بلد ما سواءً كانت في آسيا أو أفريقيا، وهو ما تأثرت به الحركة الصهيونية.

المرجع: د.عبدالوهاب المسيري، **"الأيدولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم إجتماع المعرفة (القسم الأول)"**، مرجع سبق ذكره، ص131-132.

[28] Abdul-Ilah Abu-Ayyash, "**Israeli Regional Planning Policy in the Occupied Territories**," Journal of Palestine Studies val.5, 1976, p.86–87. https://palquest.palestinestudies.org/sites/default/files/Israeli_Regional_Planning_Policy_in_the_Occupied_Territories-_Abdul-Ilah_Abu-Ayyash.pdf

[29] Ibid, p.90-96.
See also: Yesh Din. "**Appropriating the Past – Israel's Archaeological Practices in the West Bank**." April 3, 2018. https://www.yesh-din.org/en/appropriating-past-israels-archaeological-practices-west-bank/

[30] د.عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والحضارة الغربية"**، مرجع سبق ذكره، ص109.

[31] د.عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة"**، مرجع سبق ذكره، ص51-53.

[32] المرجع السابق، ص53-54.

[33] المرجع السابق، ص51.

[34] Hermann Rauschning," **Hitler Speaks: A Series of Political Conversations with Adolf Hitler on His Real Aims**", (London: Thornton Butterworth, 1939), p.238.

[35] د.عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة"**، مرجع سبق ذكره، ص132-133.

[36] د.عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والحضارة الغربية"**، مرجع سبق ذكره، ص108.

[37] د.عبدالوهاب المسيري، **"الأيدولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم إجتماع المعرفة (القسم الأول)"**، مرجع سبق ذكره، ص214-215.

[38] .عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة"**، مرجع سبق ذكره، ص252-255.

[39] المرجع السابق، ص56.
أنظر أيضًا: محمد كزو، **"الإنسان الأعلى في فلسفة فريدريك نيتشه"**، منصة معنى، 2024. الإنسان الأعلى في فلسفة فريدريك نيتشه – منصة معنى الثقافية

[40] د.عبدالوهاب المسيري، **"الصهيونية والحضارة الغربية"**، مرجع سبق ذكره، ص109.

[41] المرجع السابق، ص69.

[42] **"بروتوكول هانيبال الإسرائيلي.. جندي قتيل خير من جندي أسير"**، الجزيرة نت، أغسطس 2025. بروتوكول هانيبال الإسرائيلي.. جندي قتيل خير من جندي أسير | الموسوعة | الجزيرة نت

See also: Judah Ari Gross, "**Israeli army cancels controversial Hannibal Protocol**", The Times of Israel, 2016. https://www.timesofisrael.com/idf-chief-puts-an-end-to-contentious-hannibal-protocol/

[43] Steizinger, Johannes. "**The Significance of Dehumanization: Nazi Ideology and Its Psychological Consequences**." *Politics, Religion & Ideology* 19, no. 2 (January 2018): 139-157. Full article: The Significance of Dehumanization: Nazi Ideology and Its Psychological Consequences

See also: M. Asi, Yara. "**The Growing Consensus over Israel's Genocide in Gaza**", Arab Center Washington DC, Aug 19, 2025. The Growing Consensus over Israel's Genocide in Gaza

[44] "**Israeli defence minister orders 'complete siege' on Gaza**", AL JAZERAA, Oct 2023. Israeli defence minister orders 'complete siege' on Gaza | Hamas | Al Jazeera

[45] “**Israel’s former ambassador to UN calls Palestinians 'inhuman animals'**”, Değişen Dünyanın Habercis, oct 2023. Israel’s former ambassador to UN calls Palestinians 'inhuman animals'

[46] **“Nazi Propaganda.”** *Holocaust Encyclopedia*, United States Holocaust Memorial Museum, Washington. https://encyclopedia.ushmm.org/content/en/article/nazi-propaganda

[47] **"الهاسبارا.. رأس حربة الدعاية الإسرائيلية لتوجيه الرأي العام العالمي"**، الجزيرة نت، أبريل 2024. الهاسبارا.. رأس حربة الدعاية الإسرائيلية لتوجيه الرأي العام العالمي | الموسوعة | الجزيرة نت

[48] Goodfriend, Sophia. “**Why human agency is still central to Israel’s AI-powered warfare**”, +972 magazine, April 25, 2024. Why human agency is still central to Israel’s AI-powered warfare

[49] Dawsey, Jason. “**Immeasurable Brutality, the Nazi–Soviet War 1941–1945: An Interview with Jeff Rutherford, PhD**.” The National WWII Museum, June 19, 2024. https://www.nationalww2museum.org/war/articles/immeasurable-brutality-nazi-soviet-war-1941-1945-interview-jeff-rutherford-phd.

[50] Food and Agriculture Organization of the United Nations. “**Gaza’s Agricultural Infrastructure Continues to Deteriorate at Alarming Rate**.” FAO Newsroom, 26 May 2025. Gaza’s agricultural infrastructure continues to deteriorate at alarming rate

[51] **"مدينة القنيطرة السورية"**، الجزيرة نت، أبريل 2011. مدينة القنيطرة السورية | أخبار | الجزيرة نت